مقدمة
في تاريخ الممالك الإسلامية
في السودان الشرقي

١٤٥٠ - ١٨٢١

يوسف فضل حسن
جامعة الخرطوم

SUADTek Limited
Khartoum
٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ للّه فَاتِحَةُ كُلِ خَيْرٍ﴾

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

معهد البحوث والدراسات العربية

الجامعة العربية - القاهرة ١٩٧١م

الطبعة الثانية

الدار السودانية للكتب- الخرطوم

١٣٩٢ - ١٩٧٢م

الطبعة الثالثة

مطبعة جامعة الخرطوم

دار جامعة الخرطوم للنشر

الخرطوم ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩م

الطبعة الرابعة

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م

سوداتك المحدودة

٢٠٠٣

الفصل الثالث

سلطنة الفونج

سلطنة الفونج

أ - أصل الفونج وموطنهم

ما أن هُزم العبداللاَّب على يد الفونج بقيادة زعيمهم السلطان عمارة دونقس في نحو سنة ١٥٠٤م حتى تمت للفونج السيطرة على الجزء الشمالي من السودان الشرقي، وأصبح نفوذهم يمتد من مدينة مشو بالقرب من الشلال الثالث حتى جنوب عاصمتهم سنَّار الواقعة على النيل الأزرق، ثم امتد ملكهم ليشمل أجزاء كبيرة من بلاد البجة في الشرق وكردفان في الغرب. وظل نفوذ الفونج في تضاؤل مستمر خاصة في الأطراف حتى انتهت مملكتهم بالفتح التركي المصري سنة ١٨٢١م.

ونظراً لما اكتنف ظهور الفونج من غموض، تارة لقلة المصادر الوطنية وأخرى لصمت المصادر العربية المعاصرة، فإن أصلهم ما زال يكَّون مشكلة رئيسية في تاريخ السودان. وقد شغل هذا الأمر بال الباحثين في فترات طوال دبجت خلالها كثير من المؤلفات وطرحت فيها كثير من النظريات، ولكن دون الوصول إلى رأي قاطع. وربما ظل الحال هكذا إلى أن تنال المنطقة الواقعة جنوب سنَّار، والتي يرجح كثير من الباحثين أنها مهد مملكة الفونج، قدراً أكبر من اهتمام علماء اللغات المقارنة والآثار. وعليه فإن ما أكتبه في هذه الصفحات التالية لا يعدو محاولة لإعادة النظر فيما كتب عن موطن الفونج وأصلهم وإبداء الرأي فيه.

يُرجِع الباحثون موطن الفونج أو أصلهم إلى واحدة من ثلاث مناطق: بلاد الحبشة، وبلاد البرنو، ومنطقة الشلك على النيل الأبيض. ويلاحظ أن بلاد الحبشة تجد تفضيلاً في الروايات الوطنية وتواتراً عند النسّابة السودانيين الذين ينسبون الفونج إلى بني أمية، بينما تتفق بلاد الحبشة والبرنو في أنهما وقعتا تحت مؤثرات إسلامية قبل قيام مملكة الفونج.

كان أول من وصف هذا الشعب الغريب دون أن يسميه هو المغامر اليهودي داؤد روبيني الذي قدم من اليمن في طريقه إلى أوروبا. وكان يدعى النسب الشريف ويتظاهر بالإسلام. ومكث نحو عشرة أشهر من أواخر عام ١٥٢٢م وأوائل عام ١٥٢٣م في ضيافة ملك الفونج عمارة الذي وصفه داؤد بأنه مسلم أسود ويحكم شعباً من السود والبيض. ولعله قصد بالسود السكان الوطنيين وبالبيض العرب. وقضى روبيني معظم تلك الفترة في لمؤل Lam'ulأو لوءول Lua'ul، مقر الملك الواقع على النيل الأزرق وعلى بعد ثمانية أيام من سنّار. (١) وكثيراً ما صحب روبيني الملك في تجواله لتفقد أحوال بلاده شهراً بعد شهر، وكان يساعد الملك في إدارة المملكة عدد كبير من الموظفين كما يساعده قادة الجيش وعدد من القضاة وحكام المدن. وذكر روبيني أن الملك يمتلك عدداً كبيراً من الخدم والرقيق ذكوراً وإناثاً ومعظمهم عراة الأجسام وأنهم يأكلون لحوم الأفيال والذئاب والفهود والكلاب والإبل والفئران والضفادع وحتى لحم البشر.(٢) وبالرغم من زعم روبيني أن ستين فارساً من الأشراف كانوا يقفون على خدمته هو، فإن هذا العدد الكبير من الخدم والرقيق ربما يشير إلى غالبية جيش الملك أو مؤيديه. وإذا جاز لنا أن نصدق وصف روبيني لغذائهم فربما جاز لنا أن نستنتج بأنهم ليسوا مسلمين أو عرباً. ويضيف روبيني أن الملك يملك التبر وكثيراً من الخيل والإبل الصهب وقطعانا من الماشية. (٣)

يتضح من هذا الوصف أن رعايا الفونج كانوا في أول أمرهم رعاة يمتهنون تربية الماشية وهو وصف يتفق مع ما أشارت إليه أقدم صيّغ **مخطوطة كاتب الشونة**، في تكثيف روائي، عندما قالت أن لهم بقراً فيه ثور فحل وكان يتعدى ويرعى في غابة سنَّار.

ويبدو لي أن تواتر ذكر موضع لمؤل بصورة أو أخرى في أكثر من مصدر يمثل قرينة هامة لتحديد موطن الفونج: تذكر **مخطوطة كاتب الشونة** (ب) صراحة أن ابتداء أمر الفونج كان يعرف بلول، وجاء في صفحة ٨ (ب) أن "لول في الصعيد"

أي منطقة أعالي النيل الأزرق التي ظلوا بها "على قدر ما أراد اللّه إقامتهم بذلك المحل".

وتذكر فقرة أخرى أنهم كانوا يقيمون في "جيلي". وليس في هذين النصين ما يرجح أن كلاً من لول وجيلي تشيران إلى موضع واحد وربما قصد الراوي بجيلي جبل كيلي.(٤) الواقع على خطي عرض ١٠,٠٥ آ-٢٠,٤٠ شرق والكائن جنوب غرب فازوغلي.(٥) ويشير نفس المصدر (ج) في موضع آخر عند حديثه عن السلوك السيئ الذي تردى فيه السلطان أُونسه بن بادي الأحمر (١٧١٥ - ١٧١٨): "فلما بلغ أهله الفونج ذلك، أرادوا عزله هم، وجنود لولو، وهم الذين يعزلوه ويولوا قبل ملك الهمج عليهم"...(٦) ويوحى هذا النص أن جنود لولو والفونج فئتان مختلفتان إلا أن نسخة أخرى من هذه المخطوطة تبيِّن أنهما فئة واحدة فتقول: "حتى بلغت أخباره إلى الفونج بالصعيد وهم جنود لولو".(٧)

وجاء هذا اللفظ في نقش على نقارة يزعم أنها نقارة الفونج الأصلية. والصواب أنها تعود إلى عهد السلطان بادي بن نول (١٧٢٤ - ١٧٦٢م)، وذكر فيه أن جد الفونج جاء إلى لول ونصه :

"نقارة الدار نقارة السلطان
عمارة بن السلطان عدلان
جدهم الكبير الجاء من لول
عمرها السلطان بادي بن السلطان نول
نصره اللّه آمين.(٨)

وذكر ذلك اللفظ في **مخطوطة أنساب العرب المبؤبين [كذا] بالسودان** للفقيه أحمد بن الفكي معروف، والتي ترجع إلى عام ١٨٦٠م أو أواخر عهد الفونج في معرض حديثه عن أصل الفونج " العمريون.. أبناء عمر (و) سليمان الأموي ويقال أنهم الآن السلطنة بالسودان. وقد تزاوجوا هم وأهل لولو، بلد من بلاد الهمج

حتى صار مثلهم في جميع الأحوال ويشتهرون بالفونج".(٩)

ويشير لفظ الهمج إلى السكان الوطنيين الذين يقطنون المنطقة الجبلية الواقعة غرب وجنوب فازوغلي وعرفت بدار الفونج بعد أن بسط الفونج نفوذهم عليها. من أشهر سكانها اليوم المابان، جُم جُم، البرتا، الأنقسنا، البرون والأدوك. ومركز بلاد الهمج هو جبل كيلي الذي جاء ذكره في **مخطوطة كاتب الشونة**. وحاول الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل أن يربط بين لمؤل روبيني ولول أو لولو الروايات السودانية بجزيرة لامو الواقعة على ساحل أفريقيا الشرقي جنوب الصومال والتي هاجرت إليها قبيلة فنج العربية. ولكن بعد المسافة بين البلدين ووعورة الطريق وعدم تطابق التواريخ ربما يبعد ذلك الموضع من الاعتبار. (١٠)

ويبدو لي أنه ربما كانت هناك ثمة صلة أو تطابق بين لمؤل - لول - لولو - وجبل أولو الواقع "على خطي عرض ١٠,٤٣ شمال ٣٤,٢٠ شرق" غرب كيلي وجنوب قولي. وهو يقع على بعد نحو ثمانية ايام جنوب سنَّار في تقدير الأستاذ على أحمد على الذي طاف تلك المنطقة. (١١) ويروي البعض أن الأسرة الحاكمة أو الطبقة الأرستقراطية في كل من أولو وكيلي كانت من الفونج وأن قدومها إلى تلك المنطقة كان قبل العهد التركي، ولكني أرجح أن صلة الفونج بأولو قديمة وترجع إلى العهد الذي كانت تمثل فيه أولو المعسكر أو نقطة الأنطلاق التي أرتبطت بنشأة تلك المملكة. وقد فقدت أولو أهميتها السياسية بعد أن توطدت دعائم المملكة في الشمال واختط الفونج سنَّار العاصمة لهم. ولكنهم لم يهملوا موطنهم التقليدي. كما أن عادة القتل الطقسي بين تلك الأسر على نمط ما كان يعتقد، أنه سائد بين ملوك سنار وقيام "جنود لولو" بعزل السلطان إذا ما ارتكب ما يسئ إلي هيبة الملك، يؤكد ما ذهبنا إليه. (١٢)

وسواء صح تطابق أولو مع لمؤل - لول - أم لم يصح فإن جملة القرائن سالفة الذكر تشير إلى أن زحف الفونج نحو الشمال قد اقترن بموضع يحمل مثل هذا الاسم، وهو يقع في المنطقة الجبلية الواقعة جنوب غرب سنَّار. وقد ذكر بروس

صراحة أن المنطقة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض وجنوب سنَّار وغرب الحبشة مليئة بالذهب ورجح بأنها بلاد الفونج. (١٣) ومن قبله لاحظ روبيني كثرة التبر في ديار الملك عمارة وكيف أن الملكة ووصيفاتها وعامة الإماء كن يتزين بالحلي الذهبية وبها يسترن عوراتهن.

ومن لمؤل - لول - لولو - أو أولو اتجه الفونج شمالاً، بحثاً عن المرعى لماشيتهم حتى بلغوا جبل مويه الواقع على بعد عشرين ميلاً غرب سنَّار ومنها توجهوا إلى سنَّار فعمروها واتخذوها حاضرة لهم بعد أن كانت مجرد مقر لواحد من نواب عمارة وذلك في نحو عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤م. وما أن استقر بهم المقام حتى التحموا بالقبائل العربية الزاحفة من الشمال وتنافسوا على مراعى الجزيرة الغنية فتحاربوا عند أربجي وهزموا العبداللاَّب على النحو الذي أسلفناه.

ولا شك أن هذه الصورة الغامضة لموطن الفونج الأول لا تخلو من ثغرات وتساؤلات، ربما وضحت عند مناقشتنا الآراء المختلفة التي قيلت عن أصل الفونج البعيد.

١ . الأصل الأموي :

تجمع الروايات السودانية عامة، ومعظمها من وضع النسَّابة السودانيين، أن الفونج من سلالة بني أمية الذين هربوا من نير الدولة العباسية بعد أن سقطت دولتهم، وترجح هذه الروايات أنهم دخلوا السودان عن طريق الحبشة. ولا يختلف الفونج، في تمثيلهم للنسب العربي عن سائر المجموعات السودانية المستعربة والتي اعتنقت الدين الإسلامي. (١٤)

وقد ظهرت اقدم إشارة خطية إلى صلة الفونج بالأمويين في وثيقة ترجع إلى الربع الأول من القرن السابع عشر، بعثها السلطان محمد بادي عجيب (ولعله بادي سيد القوم) "إلى بني أمية الساكنين دار دنقلا" يوضح فيها أنه أموي مثلهم.(١٥) ويبدو أن الغرض من الرسالة هو إسكات الأصوات المعارضة في دنقلا

والتي تشككت في إدعاء الفونج للنسب العربي الأموي. إذ أن تاريخ هذه الوثيقة يوافق العهد الذي توترت فيه العلاقات بين الفونج والعبداللاَّب وساءت إلى أن اقتتل الطرفان في معركة كركوج حيث هزم العبداللاَّب (نحو سنة ١٦١١م) فهرب بعض زعمائهم إلى دنقلا، حيث أعلنوا رأيهم صريحاً في نسب الفونج، ولم تصف العلاقات بين العبداللاَّب إلاّ بعد وساطة الولي الشيخ إدريس ود الأرباب. (١٦)

ويتواتر الأصل الأموي كثيراً في أشجار النسب السودانية، وتروي واحدة منها، يزعم أن أصلها يرجع إلى القرن السادس عشر، أن الفونج من العمريين سلالة سليمان [كذا]ابن عبد اللَّه الملك الأموي الذي هرب من الشام إلى الحبشة خوفاً من بطش السفاح، وهناك تعقبه العباسيون حتى اضطروه للهجرة إلى السودان حيث تزوج سليمان بنت الملك وولد منها ولدين هما داؤد وأنس أو أودون وأُونسه كما يعرفان محلياً. (١٧) وليس في المصادر المعاصرة ما يؤيد هذه التفاصيل، إلا أن إبني مروان بن محمد، آخر خلفاء الدولة الأموية، وهما عبد اللَّه وعبيد اللَّه هربا في نحو ألفين من أتباعهما لبلاد النوبة بعد أن سقطت الدولة الأموية في سنة ٧٥٠م. ولم يسمح لهما ملك النوبة بالبقاء في بلاده خوفاً من إثارة حفيظة العباسيين عليه، فقررا العودة إلى الحجاز عن طريق باضع. وفي طريقهما عبر بلاد البجة، قتل عبد اللَّه في جماعة من أتباعه وعبر عبيد اللَّه البحر إلى الحجاز. ومن ثمّ فليس هناك ما يؤكد بقاء فئة منهم منذ ذلك التاريخ. (١٨) وتضيف رواية للسمرقندي أن ذرية أنس وداؤد تكاثرت بين السودان أو السود حتى صار من العسير التفريق بينهم. (١٩)

وتضيف رواية الفقيه أحمد بن الفكي معروف التي ذكرناها من قبل أن ذرية عمرو بن سليمان الأموي تصاهرت مع سكان لولو من بلاد الهمج "حتى صارت مثلهم في جميع الأحوال". (٢٠) وتذكر مخطوطة فيينا في إيجاز: "وقيل أنهم من بني أمية الذين هربوا من العباسيين أو من بني هلال". (٢١) وقد تشكك بروس في إدعاء ملك الفونج النسب إلى الدوحة الأموية الشريفة قائلاً: "إن تجعيد شعره

وفرطحة قسمات وجهه وسواده يدلان على انه من الشلك".(٢٢) ومع وجاهة ما أثاره بروس من تشكك فإننا نخطئ إذا ظننا أن عروبة المرء تقاس بشكله وبلون بشرته فقط.

وقد رأينا كيف أظهرت "أوراق النسب" أن الاختلاط كان كبيراً حتى ذاب الأصل العربي في الوطنيين ولم يعد هناك ما يميزهم عليهم. ولا شك أن العرب والشعوب المستعربة من سكان مملكة الفونج قد لاحظت وجود فرق عرقي بينهم وبني الفونج وتوفرت لهم من الأدلة ما حدا بود ضيف اللّه أن يتحدث في جلاء مميزاً بين ملوك الفونج وملوك العرب. (٢٣) وقد فطن بعض النسّابة السودانيين لهذا الفرق ولم يوافقوا علي ما ذهبت إليه أغلبيتهم من أن الفونج من أصل أموي، بل آثروا أن يقرنوهم بشخصية أسطورية من بني هلال تعرف بحسن (الهلالي) بن هلال وهو ابن أمة سوداء. ويُفهم من صيغ هذه الروايات(٢٤) المضطربة أن حسناً هذا أنجب ولداً أسمه دوكة وهو جد الفونج وعدد من القبائل الوطنية مثل الشلك والدينكا وفُنّقُر وكيرا. (٢٥)

ويبدو لي أن الروايات الوطنية ممثلة في أشجار النسب تحمل نواة صادقة لذكرى صلة بين سكان جبال الفونج وبين العرب (أو المسلمين). وربما كان الفونج، وهو رأي أميل إلى ترجيحه، فئة من عرب جهينة الذين أشار إليهم ابن خلدون وقال أنهم بلغوا أطراف الحبشة. وينبغي ألا نبالغ في أهمية التفاصيل التي تتحدث عن الأصل الأموي أو الهلالي وأن نأخذ هذه الأخبار في حذر شديد إذ أنها تؤرخ لصدى صلة تعود الى القرن الثامن الميلادي، وحتى لوصدقت هذه الصلة فإن شدة الإختلاط بين العرب الوافدين والسود من الوطنيين محت كل ما يميز الأوائل عن الأواخر.

وارتبط الأصل الأموي للفونج بالحبشة أيضاً، فهناك شبه إجماع بين الروايات السودانية على أن أجداد الفونج من الأمويين قد اتخذوا من الحبشة موطناً لهم. ولفظ الحبشة كالسودان تعبير واسع المعنى يعصب تحديده سياسياً

وجغرافياً. ومن ثمَّ فليس في وسعنا أن نتحقق إن كانت منطقة أعالي النيل الأزرق التي إتفقنا على قبولها موطناً لأجداد السلطان عمارة تدخل تحت إطار هذه التسمية. ويجدر أن نذكر أن لُدولفُس Ludolphus، الذي كتب في نحو سنة ١٦٨٠م، يزعم أن مملكة سنَّار أو الفند أي "الفونج" والتي يحكمها سلطان شديد البأس كانت فيما مضى تدين بالولاء للحبشة ولكن ملكها مستقل الآن ويسيطر على الجزء الجنوبي من بلاد النوبة(٢٦). ولم تقف جهود الباحثين على مدلول الحبشة العام بل سعى كروفورد والشاطر بصيلي عبدالجليل لتحديد ذلك الموقع إعتماداً على اشجار النسب سالفة الذكر وغيرها (٢٧)

وعلى الرغم من أن كروفورد اعتمد على قرائن جغرافية بحتة ليقرر أن القلابات الواقعة على تخوم الحبشة وجنوب شرق سنَّار هي لمؤل فإنه قد أهمل كل المعلومات الجغرافية التي ذكرها روبيني عند وصفه لطبيعة ذلك الموقع . (٢٨) ويبدو أن كروفورد لم يكن مطمئناً على سلامة إقتراحه هذا فقرر في موضع آخر أن منطقة قانجار الواقعة على أعالي نهر الدندر بين القلابات وفازوغلي ربما كانت المنطقة التي إعتمد عليها عمارة لتجنيد عساكره. (٢٩) واعتمد كروفورد أيضا على بعض الروايات السائدة في إرتريا في أول هذا القرن والتي تذكر أن هناك صلة بين الفونج والبلو، ويبدو لي أن هذا الرأي يحتاج إلى ما يدعمه من أدلة كما يحتاج إلى دراسة تفصيلية لتاريخ البلو الذين يكثر ذكرهم في منطقة نفوذهم الواقعة جنوب سواكن.

ويري الأستاذ الشاطر بصيلي عبدالجليل أن سلطان الفونج الأول قدم من منطقة في شمال الحبشة (غرب إرتريا) حيث تقع لمؤل (أوللم كما يسميها) وذلك على أثر الحروب التي كانت سائدة بين ولاة الإمارات الإسلامية والمسيحيين من الأحباش. ولكن الأستاذ الشاطر سرعان ما تخلى عن رأيه الأول أو قل أنه عدَّل فيه على أثر إطلاعه على مخطوطة أو كتاب الزنوج. وخلاصة رأيه الجديد أن مجموعة من العرب قد هاجرت من الشام بأمر الخليفة عبد

الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥م) إلى جزيرة لامو الواقعة على ساحل المحيط الهندي جنوب الصومال، ثم لحقت بهم مجموعات أخرى من العرب يهمنا منها قبيلة فَنَجَ (بفتح الفاء والنون والجيم) التي نزحت من وادي شمايل الواقع في عمان واختلطت فَنَجَ مع من سبقها من الأمويين الذين أخذوا يعملون في التجارة وإتخذوا من الساحل موطناً لهم، وفي ظروف لا نعرف عنها الكثير هاجر بيت فنج من لامو وأخذ في غزو بلاد الصومال، أو المنطقة الواقعة بين بربر وسواكن.(٣٠)

أخيراً يربط الأستاذ الشاطر هذه الهجرة بمنطقة جنوب غرب إرتريا - الموضع الذي إتخذه منطلقاً للفونج في بادئ الأمر. ولم يبين الشاطر إن كان قد عثر على ما يؤكد حقيقة فَنَجَ هذه في الخليج العربي. كما أنه لم يبين في جلاء تاريخ تحركات هذه القبيلة. وهذه النظرية في رأيي رغم ما تثيره من جديد ربما تحتاج إلى ما يدعهما من وثائق خطية وآثار وما يزيل ما بها من ثغرات.

ومن الطريف أن واحدة من الروايات الوطنية التي جمعتها شعبة ابحاث السودان تزعم أن الفونج قد قدموا من الجزيرة العربية عن طريق الصومال ثم الحبشة حتى بلغوا سنَّار. (٣١)

ومهما يكن من أمر فقد يكون لرواية الموطن الحبشي، رغم تعدد صورها وما يعوزها من سند قاطع، ظِل من الحقيقة وربما كان هذا الموطن مجرد مقر مؤقت لذلك العربي أو المسلم الذي تزوج من أسرة وطنية في منطقة أعالي النيل الأزرق.

٢ . الأصل الشلكاوي:

كان أول من ربط بين الفونج والشلك هو الرحالة جيمز بروس (١٧٣٠-١٧٩٤م) الذي زار سنَّار في سنة ١٧٧٢م وجمع ما كان متداولاً عن أصل الفونج من رواة مختلفين وعلى رأسهم أحمد سيد القوم مدير شئون القصر الملكي أو رئيس الخدم. وانتهى الى أن الطبقة الحاكمة في مملكة الفونج هي فرع من قبيلة الشلك. ويمثل هذا الرأي خلاصة لما بلغه وهو في سنَّار وتقديره الشخصي لما سمع وليس كل ما روي في هذا الشأن. وفي واقع الأمر أن بروس كتب مشاهداته ومذكراته في كتاب بعد اثنتي عشرة سنة من عودته. وقد وصف أحد معارفه منحاه في التأليف بأنه لم يكن يوحي بالدقة وكان عفوياً فيما يختص بالتفاصيل. (٣٢) ولهذه الأسباب وغيرها وجدت هذه النظرية معارضة شديدة من شاتوي ونادلر، وتصدى آركلّ لهما مدافعاً عنها معتمداً على مصادر أخرى إلا أنه تحول عن رأيه الأول وعدَّل فيه. ورغماً من الهنات التي ذكرناها والتحفظات التي أبداها بعض الباحثين فإن رواية بروس تمثل تياراً روائياً قوياً كان سائداً في مملكة الفونج يسترعي الإنتباه ويستحق الإعتبار.

وخلاصة رواية بروس أن أمة من السود تعرف بالشلك تقطن في الشواطئ الغربية للنيل الأبيض على خط عرض ١٣شمال انقضُّوا بزوارقهم على الولايات العربية وهزموها في معركة آربجي... وأن أول سلاطينهم على الشاطئ الشرقي للنيل الأزرق هو عمارة بن عدلان الذي أنشأ مملكة وبنى سنَّار حاضرة لها. وعند قيام هذه المملكة كان الملك وكافة الشلك عبدة أوثان ولكنهم سرعان ما أسلموا بقصد التجارة مع القاهرة وإتخذوا كلمة الفونج التي فسروها لتعني سادة، غزاة أو مواطنين أحرار. واعتذر بروس عن عدم تمكنه من إعطاء تفسير دقيق لهذا اللفظ لجهله بلغة القوم وقال إنها تطلق فقط على الوافدين من (أو من ولدوا في) المنطقة الشرقية للنيل الأبيض. (٣٣)

والشلك احدى القبائل النيلية Niloticsالتي تسكن في منطقة فشودة على

ويصفه نعوم شقير: "قيل إنه لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين".(٩) ولكن نشر الإسلام بين الفور كان عملية بطيئة جداً. وتوضح الأخبار التي جمعها التونسي عن عادات الفور بقاء كثير من مظاهر الوثنية بينهم حتى القرن التاسع عشر. ويقول عن سكان جبل مرة إنهم "لا يعرفون من العربية إلا كلمتي الشهادة، ويقولونها مقطعتين مع العجمة القبيحة".(١٠)

وقد اختلفت الأخبار عن بداية عهد سليمان سولونق فذهب براون إلى القول بأنه حكم بنحو ١٣٠- ١٥٠سنة قبل زمنه أي بين عام ١٦٤٠م - ١٦٦٠م. ويؤرخ التونسي لقيام تلك المملكة بنحو ٢٠٠ سنة قبل عهده أي نحو ١٦٤٠م. ويجعل تقويم دي كادلفان ودبروفري سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م بداية ذلك، وهو فيما يبدو متأخر قليلاً. ويتأرجح تقويم نعوم شقير بين سليمان الأول ٨٤٨ - ٨٨٠/١٤٤٤-١٤٧٦م وسليمان الثاني ١١٠٦ - ١١٢٦/١٦٩٥ - ١٧١٥م. ولا شك أن التاريخ الأول جد متقدم وربما قصد به أحمد المعقور، أما تاريخ سليمان الثاني فينسحب عليه ما قلناه عن تقويم دي كالفان ودبروفري. ولا ريب أن التاريخ الذي ذكره ناختيفال أي ١٥٩٦م هو الآخر متقدم جداً ومن ثم فإنني أميل إلى قبول ما ذهب إليه التونسي وبراون من أن عهد سليمان سولونق قد إزدهر في نحو سنة ١٦٤٠م - ١٦٦٠م وهو تاريخ يجد قبولاً عند كثير من الباحثين.(١١) وظلت سلالة الكيرا تحكم دارفور منذ أواسط القرن السابع عشر حتى قضى عليها الزبير باشا رحمة المنصور في معركة ماناواشي في ٢٤ اكتوبر ١٨٧٤م. إلا أن تقاليد الحكم المستقل عند فور جبل مرة ظلت تعارض الحكم التركي المصري إلى أن تمكن السلطان علي دينار من استرداد حكمه سنة ١٨٩٩م وظل يحكم تلك المملكة العتيقة وهو يدافع عن استقلالها حتى ضمت دارفور للسودان الانجليزي المصري علي يد البريطانيين سنة ١٩١٦م.

وما أن ورث السلطان سليمان سولونق عرش الفور متخذاً من جبل مرة

حاول إنشاء جيش جديد يكون ولاؤه للسلطان دون سواه. وقد أثار هذا التغيير الجذري في تنظيم الجيش حفيظة كثير من الأمراء والقواد وأصحاب المصلحة في النظام القديم.

ويبدو أنهم حسنوا له الخروج للانتقام لمقتل سلفه فلما كان في ساحة المعركة في وداي تخلى عنه القواد والجيش التقليدي وتركوه ليخوض المعركة مع رقيقه. فهزم شر هزيمة وقيل إنه قتل في تلك الحرب. وقيل إنه اختفى من المعركة دون أن يناله أذى ولكنه تنحى عن العرش لصالح أخيه السلطان محمد تيراب (١٧٥٢ - ١٧٨٧م). وما زال رجال الدولة يلحون على تيراب حتى أمر بخنق أخيه على يد رجل يدعى "وير".(١٤)

أقنعت تلك الهزائم المتلاحقة وازدياد نفوذ سلطنة وداي السلطان تيراب، وكان يكره الحرب ويؤثر حياة الترف، أن يسعى للسلم بينه وبين السلطان محمد جودة. فحل السلام بين البلدين إلى حين. ولكن السلطان تيراب لم يهمل نواة الجيش التي ابتدرها أخوه، وسار على خطاه حتى خلق جيشاً نظامياً يطلق عليه اسم "كوركوا" أو حاملي الحراب، بلغة الفور. ودأب على جلب الرقيق من بلاد التروج (أي منطقة تقلي بجبال النوبة) والدادنقا من دار تاما.(١٥) ولا شك أن هذا التوسع في الاعتماد على الرقيق كجنود وموظفين أو إداريين كانت له أخطاره، إذ أدى إلى خلق نوع من التوتر بين السلطان والزعامات التقليدية في المملكة خاصة العسكريين وقادة الجيوش القبلية الذين أحسوا بأن وضعهم التقليدي وهيبتهم صارتا مهددتين بالزوال.(١٦)

كان من أبرز من انخرطوا في سلاح "الكوركوا" الخصي محمّد كُرًّا الذي أظهر تفوقاً وإخلاصاً في عمله حتى عينه السلطان تيراب "سرميندقله" له أي كاتم أسراره ومبعوثه الخاص، وهي درجة رفيعة وأعظم مقاماً من رئيس الكوركوا. وما زال محمّد كُرًّا في ترق حتى بلغ أعلى الدرجات وصار بمثابة كبير الوزراء أو الوزير الأعظم.(١٧)

تسامع أتباع السلطان هاشم المسبّعاوى بقدوم هذا الجيش الكثيف تفرقوا عن زعيمهم ، وفر هو وأهله وحاشيته هاربين الى سنّار، حيث التجئوا لسلطان الفونج. وخلا الجو إلى الفور واحتلوا كردفان. ولم تفلح محاولة السلطان تيراب اللّحاق بالسلطان هاشم؛ ووجد نفسه في ديار العبداللاّب بالقرب من أم درمان. ولما منعه العبداللاّب عن ارتياد النهر حاربهم وهزمهم شر هزيمة، وغنم نحاسهم المسمى بالمنصورة وهو من شارات الملك عندهم. ولما يئس أصحابه من الانتظار، وفشل هو في عبور النهر لتعقب هاشم المسبّعاوى قرر العودة إلى بلاده؛ ومات فى بارا، مسموما. وحمل جسده محنطا إلى طُرَّه حيث دفن في مرقد آبائه.

قيل إن مملكة الفور اتسعت في عهده اتساعا لم تشهده فى تاريخها فكان حدها من الشمال بئر النطرون ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق نهر النيل (أي شواطئ النيل الأبيض المتاخمة لكردفان) ومن الغرب مضيق ترجه الذي يفصل بينها وبين وداى(٢٢).

وبموت السلطان تيراب نشبت حرب أهلية حول اعتلاء العرش بين مشايعى إسحاق الخليفة، ومشايعى أبناء أحمد بَكُر. والتف الآخرون وجلهم من الساخطين على تسلط السلطان تيراب وهيمنته على شؤون الدولة وتمكينه لبطانته فيها، بقيادة محمد كُرَّا حول أصغر أبناء أحمد بكر، الأمير عبد الرحمن. وكان عبد الرحمن، على نقيض إسحاق الخليفة، وهو ابن أخت كوبى سلطان الزغاوة، يفتقد أي تأييد قبلي أو سند سياسي من مراكز القوة المختلفة فى الدولة لهذا آثره معارضو سياسة والده من الأعيان ورؤساء الجيش ونجحوا في تنصيبه سلطاناً على الفور. ولم يستتب له الأمر إلا بعد وقائع كثيرة انتهت بمقتل إسحاق الخليفة .

وكافأ السلطان عبد الرحمن الرشيد، محمّد كُرَّا، وعينه في أعظم الوظائف وأجلها وخلع عليه لقب أبو شيخ دالي، ويأتي حامله بعد السلطان في رتبته

يستمع الشيخ عجيب لنصحه وعصا سلطان الفونج وخرج من طاعته، فبعث له السلطان عدلان ولد آيه (١٦٠٤ -١٦٠٥- ١٦١٢م) بجيش بقيادة بادي بن رباط فهزمهم وقتل الشيخ عجيب في معركة كركوج الواقعة بالقرب من الجريف شرق في نحو سنة ١٦١١ م. ولجأ أولاد الشيخ عجيب إلى دنقلا، وعادوا إلى مشيختهم على إثر توسط الشيخ إدريس ود الأرباب؛ ونصَّب السلطان عدلان أحد أبناء الشيخ عجيب ولعله العجيل، خليفة لأبيه. وعلى أثر تلك الهزيمة التي لحقت بهم لم يحرك العبداللاَّب ساكناً، حتى عهد الشيخ الأمين مسمار الذي أخذ يتآمر مع الفونج ضد الهمج ولكنه عزل عام (١٧٨٣ - ١٧٨٤م). (٧٦)

شجعت هزيمة العبداللاَّب مشيخة الشايقية أن تتمرد على سادتها من العبداللاَّب والفونج في النصف الثاني من القرن السابع عشر. (٧٧) ويبدو أن العبداللاَّب قد طالبوا الشايقية، على عادتهم السابقة، بما عليهم من ضرائب وإضطر علي ود عثمان (١٦٨١-١٦٨٨م) ملك العبداللاَّب أن يحاربهم فهزمه زعيمهم حمد ود عثمان، فاستنجد مك العبداللاَّب بالسلطان بادي بن رباط (١٦٤٤- ١٦٤٥- ١٦٨٠م). ولكن السلطان لم يرسل الإمدادات المطلوبة لأسباب لا نعرفها. (٧٨) ومنذ ذلك الحين إستقل الشايقية بحكم بلادهم، وصاروا يهيمنون على المنطقة الواقعة بين شبه شلال الضيقة والشلال الرابع واستفادوا من القلاع المحصنة على شواطئ النيل في الدفاع عن بلادهم، وأخذوا يغيرون على جيرانهم متعمدين النهب والسلب، حتى صاروا مصدر رعب للدناقلة والبديرية والنوبيين عامة علي الحدود المصرية وللقوافل التجارية. وكان انفصال الشايقية أول شرخ صعب على الدولة تلافيه.

انفلت زمام السلطة من الفونج بعد أن تسلط عليهم وزراؤهم من الهمج، وقد حدث ذلك بعد إنتقال الأمر من الأُونساب سلالة ملوك الفونج الأوائل إلى ذرية السلطان نول الذي تربطه بالأُونساب صلة القربى عن طريق أمه. ولم يتمتع بالسلطة من أفراد البيت الجديد سوى نول وابنه بادي أبو شلوخ ١٧٢٤ -١٧٦٢م.

وقد إتسم النصف الأول من عهد السلطان بادي بالعدل والرخاء وكان قد ترك الأمور لوزيره دوكة، فلما مات دوكة إستبد بالأمر وأباد بقية الأُونساب من الفونج وطرد الأعيان التقليديين أو "أهل الأصول" كما يسميهم كاتب الشونه، وأكثر من إعتماده على رقيقه من النوبة ومكَّن لهم وعهد لهم بالوظائف الهامة في الدولة. ثم تمادى في ظلمه وحتى يتخلص من أعدائه ومنافسيه، كما فعل السلطان تيراب في دارفور، بعثهم في جيش كثيف لمحاربة المسبَّعات في كردفان سنة ١٧٤٧م. ورغماً عن الهزائم التي لحقت بالفونج في مبدأ الأمر فإن الشيخ محمد أبو لكيلك الذى ظل يحكم كردفان نحو أربعة عشر عاماً تمكن من هزيمة المسبَّعات ونجح في بناء جيش قوي يطمئن لولائه له. (٧٩)

لما تمادى السلطان بادي ابو شلوخ في جبروته وعاث أبناؤه في البلاد ظلماً و فساداً إتفق "أهل الأصول" من الفونج مع أبي لكليك على عزل السلطان. فعاد أبو لكيلك إلى سنَّار وطرد السلطان بادي في سنة ١٧٦٢م وعين إبنه ناصر ملكاً بعده. وكان ذلك بداية لتسلط وزراء الهمج على دست الحكم، وظل وزراء الهمج يتوارثون الامر كحكام فعليين حتى سقوط سلطنة الفونج. (٨٠) والهمج يمثلون بقايا الشعوب الأصلية التي كانت تسكن جنوب الجزيرة عند قيام مملكة الفونج وظلوا نحو قرنين ونصف قرن تحت حكم الفونج. ويقول البعض إنهم خليط من النوبة والعرب، بينما تحدد بعض الروايات صلتهم بالعوضية الجعليين. وقد استفاد الهمج بقيادة زعيمهم محمد أبو لكيلك بن بندي بن كتو وهو من أتباع الوزير محمد ولد تامة من أهالي جند توت من ثورة الارستقراطية الفونجاوية، حتى مكَّن لنفسه ولأهله من الهمج .

بعد وفاة الوزير محمد أبي لكليك في سنة (١٧٧٦- ١٧٧٧م) حاول الفونج بقيادة السلطان إسماعيل ثم ابنه السلطان عدلان التخلص من حكم الهمج بقيادة بادي ولد رجب ولكنهم لم يفلحوا. وشهدت الأربعون سنة الأخيرة من حكم الفونج سلسلة من الحروب الأهلية والثورات الداخلية فلما زحف الجيش التركي

المصري عام (١٨٢٠ - ١٨٢١م)، لم يجد مقاومة إلا من الشايقية في الشمال وخضعت له البلاد بعد أن مزقتها الخلافات القبلية وصراعات الفونج والهمج فيما بينهم.

الهوامش :

(١) كانت سنار مقراً لأحد نواب عمارة دونقس

(٢) ليس هناك ما يؤيد هذا الزعم في أي من المصادر الأخرى ، ولعله من بعض العبارات غير المسئولة التي تجعل الباحث يتشكك في صدق روبيني.

(٣) S.Hillelson " David Reubeni" *S.N.R.*, XVI, 1933 - 55-60

(٤) يرسمها نعوم شقير : ص ٦٧ (قلي)

(٥) مخطوطة فينا : ورقة ٢ أ – ٣ ب.

(٦) **مخطوطة كاتب الشونة** : ١٩ ,

(٧) تاريخ ملوك السودان , ٥

(8)A.E.R, "The Fung Drum or Nehas", *S.N.R.*, IV (1921), 211-212

(٩) أحمد بن الفكي معروف : ١٩٧ انظر أيضاً MacMichael, *Arabs*, II/346

(١٠) بسط الأستاذ الشاطر ملخص آرائه في هذا الموضوع في مقدمة **مخطوطة كاتب الشونة** (هـ–ز) وبتفصيل في دراسة أخرى لم تطبع بعد وله شكري علي سماحه لي بالإطلاع عليها وقد اعتمد في ذلك على (**كتاب الزنوج**).

(١١) ويرى الأستاذ حسين عبد الرحيم أن المسافة لا تقل عن نحو ١٤ يوماً في زمن الخريف ولا شك أن صعوبة تحديد الطريق الذي سلكه روبيني تجعل من المتعذر معرفة المدة التي قضاها في هذا الطريق .

(١٢) يوسف فضل حسن : "القتل الطقسي عند الفونج، **مجلة الدراسات السودانية** ٢/١ (١٩٧٠) ٣٦ – ٣٧ Evans-Pritchard "Ethonological Observation in Dar Fung" *S.N.R.*, XV (1932) 13 - 16 , 44.

(١٣) وذكر بروس في موضع آخر أن بلاد الفونج هي فازوغلي " Bruce, VII, 87 Hillelson , op.cit" *S.N.R.* XVI , 57-8.

(١٤) للتوسع في هذا الموضوع أنظر مقالي عن " Yusuf Fadl Hasan, The Umayyad Geneology of the Funj " *S.N.R.*, LVI, 1965, 27 - 32

(١٥) الشاطر يصيلي عبد الجليل ٢٩٦ - ٢٧١ ,

(١٦) مخطوطة كاتب الشونة: ٩ .

(١٧) النور عنقرة ٥٧٤ أو MacMichael, *Arabs* 11/36

(١٨) Yusuf Fadl Hasan, *Arabs* 29 - 30 , 173 - 174

(١٩) نسبة إسحاق محمد شداد / أو MacMichael, *Arabs*, II, 10-5

(٢٠) أحمد بن الفكي معروف ١٦٠م MacMichael, *Arabs* II, 436

(٢١) Bruce, vii, 90.

(٢٢) مخطوطة فينا ورقة ٣ أ

(٢٣) **طبقات ود ضيف الله** ٦١ - ٩٠ الخ.

(24) MacMichael, *Arabs*, II, 27 Tree Opposite page 145

(٢٥) ولعل النسابة قد أخطأوا عندما جعلوا لكير هذا وهو اسم الأسرة الحاكمة في دارفور صلة مع هذه القبائل وربما كان سواد البشرة هو الجامع بينها .

(26) Ludolphus, 87 , 388.

(٢٧) الشاطر بصيلي عبد الجليل: ٢٨ - ٣٤؛ Crawford, 146 - 155

(28) Crawford :147 Holt , " op.cit", *J.A.H.* IV,I. 45

(29) Crawford, 153

(٣٠) نشرت مخطوطة (كتاب الزنوج) بالعربية والإيطالية في كتاب:.Cerulli, *Somalia* ..1,233/252مخطوطة كاتب الشونة: و ، ز، وقد سمح لي الأستاذ الشاطر بالإطلاع على تفاصيل دراسته لهذا المشروع.

(٣١) أحمد عبد الرحيم نصر:, ٢٠

(٣٢) يوسف فضل حسن - القتل الطقسي عند الفونج - **مجلة الدراسات السودانية** ١/٢ و ٣٢-, ٣٣

(33) Bruce , VI, 370-72,VII, 96

(٣٤) **طبقات ود ضيف الله** : ٩٦ - , ٣٤٤

(٣٥) في عام ١٧٧٢ كانت اليس تابعة لمملكة الفونج وتمثل معبراً هاماً تسيطر مكنه على كردفان .Bruce , vii, 910

(٣٦) مخطوطة كاتب الشونة: ٩ .

(37) Ogot, 1/44-5

(٣٨) نلاحظ أن كلمة الفونج تنطق أحياناً الفون كما هو في العيلة فونج أو العليفون ويعرف القوز الموجود بالقرب من بربر بقوز الفون أي الفونج ونلاحظ أ، هذا الصوت، الذي يصعب تحديد هويته ويغلب عليه صوت الجيم يهمل في بعض الكلمات مثل الهوج أو الهوى.

(39) Evans-Pritchard. " op.cit." *S.N.R.*, XV, (1932)58

(٤٠) شجرة نسب النور عنقرة ك ٥٦١ وشجرة نسب الجليلاب : ٤٣٦ أو MacMichael, *Arabs*, 11/27 and The Opposite Page, 145

(٤١) يوسف فضل حسن ، القتل الطقسي عند الفونج، **مجلة الدراسات السودانية** ،مجلد ٢ عدد أول / ٣٢ - ٤٢

(42)Westerman, LVI; Crawford, 157

(43) Evans-Pritchard, op.cit., *S.N.R.*, XV,I-61

(44)A. J. Arkell, "More About Funj Origins", *S.N.R.*, XVII, 1946. 87-98

(45) H.R. Palmer, *History of the First Twelve Years of their Reign of Nau Idris Alooma of Bornu (1571-1585) By his Imam Ahmed Ibn Fartua.*

(46) Holt, " op.cit." *J. A.H.*; V.I, 40 - 42

(٤٧) رسمت في الأصل الكلوة.

(٤٨) أي الاصهار وهو تفسير خطأ والصواب الأونساب نسبة إلى أونسة جد الفونج، ولعلّ اشارة الغريب إلى الناس بأن "يحبسوا طعامهم حتى يجتمع كله ثم يفرق عليهم ويأكلون منه شئ. فيها مرجعه إلى الحديث الشريف الذي رواه الإمام زكريا يحى بن شرف النووي الدمشقي رياض الصالحين تحقيق عبدالعزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المامن للتراث، ببيروت ١٩٩٤، ص. ٢٦٥ , عن وحشي بن حرب رضي اللّه عنه أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قالوا يا رسول اللّه إنّا نأكل ولا نشبع، قال "فلعلكم يفترقون" قالوا نعم قال فاجتمعوا على طعامكم وأذكروا اسم اللّه، يبارك لكم فيه. "رواه أبو داؤود".

(٤٩) الأسرة الحاكمة بين البني عامر وقد وفد جدهم من ديار الجعليين

(50)Holt, " op.cit." *J.A.H.* IV.I.49-55

(51)L.F. Nadler. " Fung Origins". *S.N.R.*, XIV , 1931 , 63 - 64

(٥٢) ورد هذان اللفظان في مخطوطة بتوقيع السلطان عدلان بن محمد الذي عاش في أواخر القرن السابع عشر انظر الشاطر بصيلي عبد الجليل، ١٦٢ - ٢٦٢,

(٥٣) جاء في واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ص ٢ انها كاب بلول أو فوجه انظر ايضاً سيرة ملوك العبدلاب ص ٦

(٥٤) صلاح محي الدين: "مخطوطة تاريخية عن العبدلاب"، **مجلة الخرطوم**، بالمجلد ديسمبر ١٩٦٧، ص ٥٨,

(55)De Cadalvene et de Breuvery . 1, 200

(56)P.M. Holt, "Sultan Selim I and the Sudan" *J.A.H.*, VIII, (1967),19-20.

(٥٧) واضح البيان ٣ - ٤ أحمد عبد الرحيم : ٣١ - ٣٣ ؛ Paul , 77.82

(٥٨) واضح البيان: ٢,

(59)Holt, *Sudan*, 19 - 20

(٦٠)أي الفونجية نسبة إلى الفونج والصيغة التي أوردناها هي الشائعة في السودان

(٦١) نعوم شقير : ٤٢٤ -, ٤٣١

(62)Bruce, IV, 368.

(٦٣) **مخطوطة كاتب الشونة**: ٩ - ١٠ أبو سليم , ٤١

(٦٤) انظر الفصل الخامس.

(٦٥) انظر الفصل الخامس.

(66)Crawford, 180-187; Merid Wolde and Habilie Selasie, "Sudanese Ethio-

pian Relations Before the 19th Century". *Sudan in Africa*, 63-4.

(٦٧) **مخطوطة كاتب الشونة**:, ٢٢

(٦٨) ابو سليم : ٤٠ – ٤١ – ٤٥ ؛ نعوم شقير ٤٢١ – ٤٢٣ ؛ Bruce, VI/391

(69) Bruce, VI, 391

(٧٠) واضح البيان: ٣ .

(٧١) **مخطوطة كاتب الشونة** : ٩ – ١٠ .

(٧٢) المصدر السابق : ١٨ – ٢٠ .

(٧٣) واضح البيان : ٢–٣ .

(٧٤) **تاريخ ملوك السودان**: ٢ .

(٧٥) **طبقات ود ضيف اللّه**.

(٧٦) **مخطوطة كاتب الشونة** : ٨ – ٩ .

(٧٧) **طبقات ود ضيف اللّه** :. Crawford,193- 5,Nichols,14- 15,MacMichael,*Arabs*,296 1,216.6

(٧٨) انظر بعض التفسيرات الغيبية في ص ٢٢٧ من **طبقات ود ضيف اللّه**

(٧٩) **مخطوطة كاتب الشونة** : ٢٠ – ٢٥ .

(80)Holt , Sudan , 22